خطبة صلاة الجمعة 27/5/2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الصفح الجميل)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

عنوان خطبة اليوم: **الصفح الجميل**

أيها الإخوة:

الصاد والفاء والحاء أصل في اللغة يدل على عَرْضٍ وإعْرِاض، من ذلك صفح الشيء: عرضه، ويقال: رأس مُصَفَّح: عريض، ومن ذلك صَفَح عنه، إذا أعرض عن ذنبه.

والصفح في الاصطلاح: هو الإعراض عن ذنب المذنب وعن تثريبه أي لومه وتقبيحه.

والحديث في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عن الصفح عن المذنب النادم حديث طويل، ذلك لأن واحداً من المقاصد الكبرى للشريعة الإسلامية تعزيزُ روح الجماعة والمحبة والتآلف بين بني البشر.

فكم نقرأ في القرآن الكريم والحديث الشريف نصوصاً تدعو للتحابب والتآخي والترابط والتعاون والتراحم والجماعة، وكم نقرأ فيهما نصوصاً تنهى عن الخصومة والبغضاء والتدابر والتحاسد والتقاتل والتشرذم، ذلك لأن الإسلام داعيةٌ إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة.

﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85] أَمْر للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّجاوز عن جنايات المخطئين، ما دام هذا التجاوز ينفع أو يردهم عن ضلالهم، ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: 14] إشارة إلى الآباءِ والأَزواج بالعفو عن الأَولاد والعِيال إذا أخطاؤوا.

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: 22] دعوة لأَبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه بالتجاوز عن ذنْب مِسْطح بن أُثَاثة فيما أَخطأَ من الخوض في حديث الإِفْكِ.

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 109] أمر من الله تعالى للمؤمنين بالتجاوز عن خطأ المخالفين والإعراض عنه.

وفي سورة يوسف مرورٌ على محن شديدة تعرض لها سيدنا يوسف عليه السلام وكان السبب الرئيس لوقوعه فيها ظلمَ إخوته، وتمر السورة على حسدهم له وكيدِهم به وإلقائه بالجب وبيعه بيع العبيد وفتنةِ امرأة العزيز ورميه في السجن ظلماً وبعده عن أبيه دهراً، ثم يلتقي بإخوته محتاجين صدقتَه ويرون في مصر مكانتَه ومنزلته، ويتعرفون شخصه وهويته، فيعتذرون إليه نادمين ويستغفرون لذنبهم تائبين، فيقابلهم بعفوه وصفحه: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 92].

ومثل هذه الصورة جرت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل مكة الذين آذوه وحاربوه ومن دياره أخرجوه، فعاد إليهم يوم فتح مكة فاتحاً "حتى إذا فرغ وصلى جاء فأخذ بعضادتي باب الكعبة ثم قال يا معشر قريش ما تقولون قالوا نقول ابن أخ وابن عم رحيم كريم، ثم أعاد عليهم القول، فقالوا مثل ذلك، قال: فإني أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام".

أيها الإخوة:

(الناس في الثبات أمام المثيرات درجات، فمنهم من تستخفه الحوادث فيستحمق على عجل، ومنهم من تستفزه الشدائد ولكنه يبقى محتفظاً برجاحة فكرة وسماحة خلقه، وإن هناك ارتباطاً مؤكداً بين ثقة المرء بنفسه وبين أناته مع الآخرين، وتجاوزه عن خطئهم، فالرجل العظيم حقاً كلما حلق في آفاق الكمال اتسع صدره، وامتد حلمه، وعذر الناس من أنفسهم، والتمس المبررات لأغلاطهم! والجاهلية التي عالج رسول الله صلى الله عليه وسلم محوها كانت تقوم على ضربين من الجهالة، جهالة ضد العلم وأخرى ضد الحلم، فأما الأولى فتقطيع ظلامها يتم بأنواع المعرفة وفنون الإرشاد، وأما الأخرى فكفّ ظُلَمِها يعتمد على كبح الهوى ومنع الفساد، وقد كان العرب الأولون يفخرون بأنهم يَلْقَون الجهل بجهل أشد:

ألا لا يجهلنَّ أحدٌ علينا فنجهل فوقَ جهلِ الجاهلينا

فجاء الإسلام يكفكف من هذا النزوان، ويقيم أركان المجتمع على الفضل فإن تعذر فالعدل، ولن تتحقق هذه الغاية إلا إذا هيمن العقل الراشد على غريزة الغضب فلجمها، أو نزل برد الصلة بالله تعالى على نيران الشهوات فأطفأها) خلق المسلم بتصرف.

كان لمعاوية رضى الله عنه قطعة أرض وبجوارها أخرى لعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما كان يجلس فيها هو وأهله، فكان عمال معاوية يدخلون عليه.

فكتب إلى معاوية يقول: يا ابن آكلة الأكباد، امنع عمالك عني، وإلا كان لي ولك شأن... والسلام.

فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه لولده وقال له: ما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوله عنده وآخرُه عندك يأتونك برأسه، فقال له معاوية: غير هذا خير، ثم قلب الكتاب وكتب على ظهره:

أما بعد: فقد وقفت على كتابك يا ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويا ابن ذات النطاقين، وساءني ما ساءك، ووالله لو كانت الدنيا بأسرها بيني وبينك لأتيتك بها، وقد نزلت عن أرضي لك، فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال... والسلام.

فلما قرأها ابن الزبير رضى الله عنه بكى، وكتب إليه: قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل... والسلام.

فلما وقف معاوية عليه تهلل وجهه وأسفر، وقال لابنه: يا بني، من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب... فإذا ابتليت بشيء من هذه الأمور فداوه بمثل هذا الدواء.

أفضل ما يؤتى الرجل العلم والحلم، والعفو والصفح صورتا الحلم: فالعفو ترك المؤاخذة بالذنب، والصفح ترك التثريب أي اللوم والتقبيح، وقد قالوا: الهجر الجميل هو الذي لا أذى معه ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: 10] والصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: 5] والصفح الجميل هو الذي لا عتاب معه ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85].

أيها الأخ الكريم:

مرَّةً وراءَ مرّة أنت بحاجة إلى أن تصفح عن زوجك لتبقى عُرى الزوجية وثيقة.

مرَّةً وراءَ مرّة أنت بحاجة إلى أن تصفح عن ابنك حين يخطئ ويعود ليبقى رباط الأسرة وشيجاً.

مرَّةً وراءَ مرّة أنت بحاجة إلى أن تصفح عن قريبك الذي زلّتْ قدمُه وعاد لتبقى أواصر العائلة متينة.

مرَّةً وراءَ مرّة أنت بحاجة إلى أن تصفح عن أبناء قومك لتبقى حبال المجتمع شديدة.

مرَّةً وراءَ مرّة أنت بحاجة إلى أن تصفح عمن تعاملهم وتخالطهم من أجراء أو مدراء أو نظراء لتبقى حياتنا الاجتماعية مجدا.

ومما يعينك على أن تصفح عمن أساء إليك وأن تعذر من أخطأ بحقك وأن تقيل عثرة العاثر:

1- تذكر أنك ممن الممكن أن تهفو وتحب حينها من يقبل عذرك ويصفح عن خطئك فعامل الناس بما تحب أن يعاملوك.

2- تذكر بأنّ الإنسان ضعيفٌ وغيرُ كامل فراعِ ضعفه ونقصه واقبل معذرته واصفح عن زلته.

إذا كُنتَ في كُلِّ الذُنوبِ مُعاتِباً صَديقَكَ لَم تَلقَ الَّذي لا تُعاتِبُه

فَعِش واحِداً أَو صِل أَخاكَ فَإِنَّهُ مُفارِقُ ذَنبٍ مَرَّةً وَمُجانِبُه

إِذا أَنتَ لَم تَشرَب مِراراً عَلى القَذى

ظَمِئتَ وَأَيُّ الناسِ تَصفو مَشارِبُه؟!.

3- اشغل وقتك بالنافعات فإن المشغول بالخير لا يستهويه الشر، والمشغول بالعلم لا يستميله الجهل، والمشغول بالنافعات لا تعنيه المضار والناقصات.

وصاحب الأهداف العالية لا يريد أن تستوقفه الأحقاد الدنية، فتراه يعفو ويصفح.

4- اصحب أهل العلم والمقامات فإنّ من جالس الكبراء رفعوه ومن صاحب الفضلاء نفعوه، فدربوه على الحلم والعفو والصفح والإعراض عن الحمق والجهل.

5- أكثر من ذكر الله تعالى، حتى يمتلأ قلبك بالنور فإذا امتلأ بالنور لم يتسع لغيره، وفاضت أنواره على النفس، فلم تحمل حقدا ولم تحفظ ضغينة.

والحمد لله رب العالمين